السنة الثالثة والسبعون

آذار – نيسان ١٩٦٩

أبلغُ خطباءِ رجالِ الدين في لبنان

الخوري ابرهيم صرفوش الحرصل اللبناني

(١٨٧٠ – ١٩٤٩)

بقلم

جرجي ابرهيم نصر

مِنَ الناس مَنْ يعيشُ لنفسه، ومنهم مَنْ يعيشُ لنفسه وربّه، ومنهم مَنْ يعيشُ لنفسه ولربّه وتقريبه ؛ والخطيب الذي نترجم له، عاش هؤلاء جميعاً فقد عاش لنفسه إذ قدسها في بيت عرف بالتقوى ، وفي جمعية اشتهرت بغيرتها وامتازت بقداستها بمن انجبتهم من رجال الدين والصلاح ، عاش لربه اذ حفظ له عهداً مؤتمراً بأوامره ، وعاش لتقريبه كرسل عاملاً على إرشاد الضالين وتهذيب الناشئين وبثّ روح المحبة والايمان في قلوب مواطنيه .

وُلد رحمه الله ونشأ في قرية بكاسين التي اشتهر اهلها بالذكاء والنجدة في العاشر من شهر آب سنة ١٨٧٠ [1] من والدين بارين عُرفا بالورع والتقوى : نخول شاهين حرفوش (١٨٢٠ — ١٩ آذار سنة ١٨٨٩) وكاترينا فرحات طنوس نصر (١٨٣٠ — ٢٣ نيسان سنة ١٨٩٦) فنشأ نشأة صالحة . واقتبل سرّ العماد المقدس من الخوري جرجس حرفوش (١٨٢٠–١٨٨٣) في العاشر من شهر تشرين الثاني من السنة المذكورة. وكان كفيلاه في العماد شهدان لبّوس الخوري (١٨٢٣–١٩٢٤) وبولينا حرمة غيث ابي شاهين . وتلقّى مبادئ القراءة والكتابة في وطنه على المعلمين ابراهيم راشد عطيه (١٨٤٦–١٩٣٢) وخليل ضاهر ابي عيد (١٨٥٤–١٩٣٢) فأبدى منذ نعومة اظفاره ذكاءً نادرًا وقوّة ذاكرة ، وكان يواظب على الصوم والصلاة والعبادة منذ صغره . وكأنه خُلق ليكون راعياً لنفوس وداعية الى البرّ والتقوى .

وكان افراد عائلته قد اعتادوا ان يقوموا بشعائر الدين في صباح ومساء كل يوم فبذه التربية المسيحية التي اقتبسها من والديه . حبّبتْ اليه ارتداء لباس الكهنوت والانقطاع عن العالم .

ومما نقله الينا معاصرو والدته ، أنها حين شعرت بحمله اخذت ترهق قواها بأحمال ثقيلة وتشبّ عن مرتفعات عالية لتجيض نفسها لوفرة ما رزقته من البنين على فقرِ زوجها وضآلة كسبهِ ، ولكن إرادة الله شاءت ان تحول بينها وبين هذا العمل الاجرامي ، وكأنه سبحانه وتعالى استبقى هذا الجنين البريء لينشأ بين صلاحه ، عاملاً حارثاً في كرم ربّه .

وعلى ما عُرف به من ذكاء واجتهاد . فانه كان كسائر ابناء قريته ينتقل من مدرسته الى التسلّي بصيد العصافير وارتياد الجبال والحقول والأودية بعيداً عن الناس لميله الفطري الى عيشة النسك والعبادة والتفكير بحياة اسمى ، وطالما استعادت نفسه ذكرى تلك الخلات الزجلية التي كان يقوم بها فتيان لبنان في ذلك العهد متباهين بالفروسية وسرعة الخاطر والتسابق الى وضع الأزجال والتغنّي بفضائل آبائهم واجدادهم ، والمفاخرة بكل عمل بريء نبيل نشأوا عليه . فلا إقبال على الرذائل ولا مفاخرة بتلك الاعمال الصبيانية ، والاقوال البذيئة ، والاعمال المنبوذة التي يندى لها جبين الحياء ، والتي كان صبية اللبنانيين يقتبسونها من مخالطة الرعاع من أهل المدن .

---

١) وقد استندنا في بحثنا عن تاريخ ولادته وعماده الى سجل كنسي بخط خاله المرحوم الخوري الياس فرحات نصر (١٨٣٨–١٩١٦) خادم رعية بكاسين والى سجل احصاء عام ١٨٦٣ الذي يثبت انه وُلد سنة ١٢٨٦ مالية الموافق ١٨٧٠ مسيحية .

وفي سنة ١٨٨٣ قدم الى بكفين حيث اقرباؤه نجم يوسف حويك (١٨٤٧ — ١٩٢١) فتوسم فيه النجابة وتنفّد الذهن. فاصطحبه الى بيروت وقدّمه الى رئيس كلية الآباء اليسوعيين ورجاه ان يقبله في مصاف تلاميذ الاكليريكيين. وهكذا انخرط الفتى في سلك الكهنوت المقدس في شهر تشرين الاول من تلك السنة. فكان فيها مثالاً في فضيلته وسموّ اخلاقه.

وفي سنة ١٨٨٧ دخل مدرسة مار عبدا هرهريّ سنةً ثم عاد الى كلية الآباء اليسوعيين ليتابع دروسه العالية.

وفي سنة ١٨٩٣ صحب أحد الآباء اليسوعيين لزيارة الاماكن المقدسة فتبرّك بتهد المسيح وكنيسة القيامة وجبل الزيتون والجلجثة وسواها من المقدسات.

ولما عاد الى بكفين لزيارة والدته افصح لها عن رغبته في ارتداء ثوب الكهنوت فانعت في ذلك بادئ ذي بدء محاولة ان تصرفه عن عزمه. ولكنها لم تلبث ان رضيت بما قدّره الله لنجلها.

وكان المطران الياس الحويك ولم يكُ بعد قد ارتقى الى السدّة البطريركية يودّ ايفاده الى مدرسة سان سولبيس في فرنسا لانجاز دروسه هناك. فحال دون ذلك مرضه.

وعملاً برأي سيادته التحق سنة ١٨٩٣ برهبنة المرسلين اللبنانيين التي اسّسها المرحوم المطران يوحنا الحبيب (١٨١٦ — ١٨٩٤) ليواصل فيها دروسه اللاهوتية ويقوم بتثقيف صغار الطلاب الملتحقين بتلك المدرسة. فدرس اللاهوت، وأتمّ دروسه العالية. وفي ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٧ تولّى المطران يوسف دريان (١٨٦١ — ١٩٢٠) ترقيته الى رتبة الكهنوت المقدس. فكان هذا التاريخ مطلع شهرته في الوعظ والخطابة. ومن ثمّ اخذ يزاول التعليم في معهدي الآباء الكرمليين ودير يوحنا مارون المقرّ البطريركي الشهير. ولم يلبث الناس ان عرفوا فيه معلماً قديراً ومربياً فاضلاً وخطيباً مفوّهاً. يجود على ابنائه وطلبته بدرر اقواله وغالي مواعظه.

وقد أحرز رحمه الله منزلة رفيعة بين علماء البلاد ومؤرخيها ولاسيما بين خطبائهم المفاريه. وطارت شهرته في الآفاق. وعُرف بمواقفه المشهورة على المنابر: يشرع الاصلاح بزواجر وعظه. ويستميل المنفوس بعذب اقواله. ويقمع البحوث الشائكة في حقلي الدين والسياسة: فعزّز جانب العلم والتاريخ بما جادت به قريحته: وتفرّدت به عبقريته: وصحّ ان يقال فيه: انه كان ابلغ الخطباء الكنسيين في عصره.

وكان البطاركة والاساقفة الذين عاصروه . ينتدبونه لإلقاء العظات واقامة الرياضيات الروحية في جميع ابرشيات الطائفة المارونية . وطالما سمعه الناس وهم معجبون يتدفق كالسيل : داعياً ومعلماً ومحذراً . وكان يلمّ بأطراف الموضوع . فلا يترك فيه فضلة . ويذوب عذوبة في إلقائه . ونبرات صوته . وفصاحة منطقه . يبكي ويضحك . ويشجي ويطرب في القائه : ويلعب بألباب الناس . وكثيراً ما كان معاصروه يفدون اليه من بلد الى آخر ليستمعوا الى عظاته السنية حتى كانت الكنائس تضيق بهم على رحبها في أيام الآحاد والأعياد .

وقلّ من كان يماثله من الخطباء في الإلمام بالموضوع وبلاغة التعبير : حتى استحق ان يلقّبه الناس : بإمام عصره : ووحيد نسجه . ندرّ ان رأيناه قارئاً في كتاب او ناقلاً عن غيره : بل كنّا ندهش لسرعة خاطره . وانقاد بدهته . يرسل الكلام ارتجالاً : ويتدفق في اساليب البيان استرعاء لانتباه سامعيه . فيسوق المثل تارةً : ويستند الى الحوادث التاريخية مرةً اخرى .

ولم يكتف بالقاء بذل كلام الله : بل كان يهتمّ ايضاً بتثبيت الاطفال وانشاء الكنائس وتحسينها وتزيينها . وتفقّد المدارس الاكليريكية : وفحص الدعاوي . ونشر الكتب المقدسة بين العائلات : وتعميم الثقافة والقضاء على الطائفية البغيضة .

وعلى وفرة ما كان يعهد بـه اليه من المهام : كان لا يهمل البحث والتنقيب عن تاريخ الطائفة والوطن ونشر المقالات القيّمة في مختلف المجلات العلمية والادبية وأشهرها مجلتا « المشرق » و « المنارة » . كما كان ملماً بأنساب اللبنانيين وتاريخ أسرهم . يحقق ويدقق فيما ورد بالتواتر عن أصول العائلات اللبنانية وتاريخ نزوحها ومن اشتهر منها وما وقع فيها من الاحداث الهامة : والتحري عن الوثائق الدفينة وتصويرها وكشف غوامضها وحلّ رموزها ، فكان في ذلك قريب الشبه بالمغفور له البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٧٠— ١٧٠٤) الذي تدين له الطائفة المارونية بحفظ تاريخها والمحافظة على أنسابها .

وقد ترك رحمه الله شتى الرسائل والابحاث والمؤلفات النافعة : منها ما هو مطبوع ومنها ما لا يزال مخطوطاً : ولكن اكثره محفوظ في محفوظات رهبنته الكريمة : وقد ألمحتُ الى هذه المؤلفات مجلة « المنارة » المحتجبة سنة ١٩٤٩ كما نشر ترجمته العالم المحقق المرحوم الاب اغناطيوس طنوس الخوري اللبناني (١٨٩٩ — ١٩٦١) في جريدة « البيرق » بتاريخ ١١—١٢ نيسان سنة ١٩٤٩ .

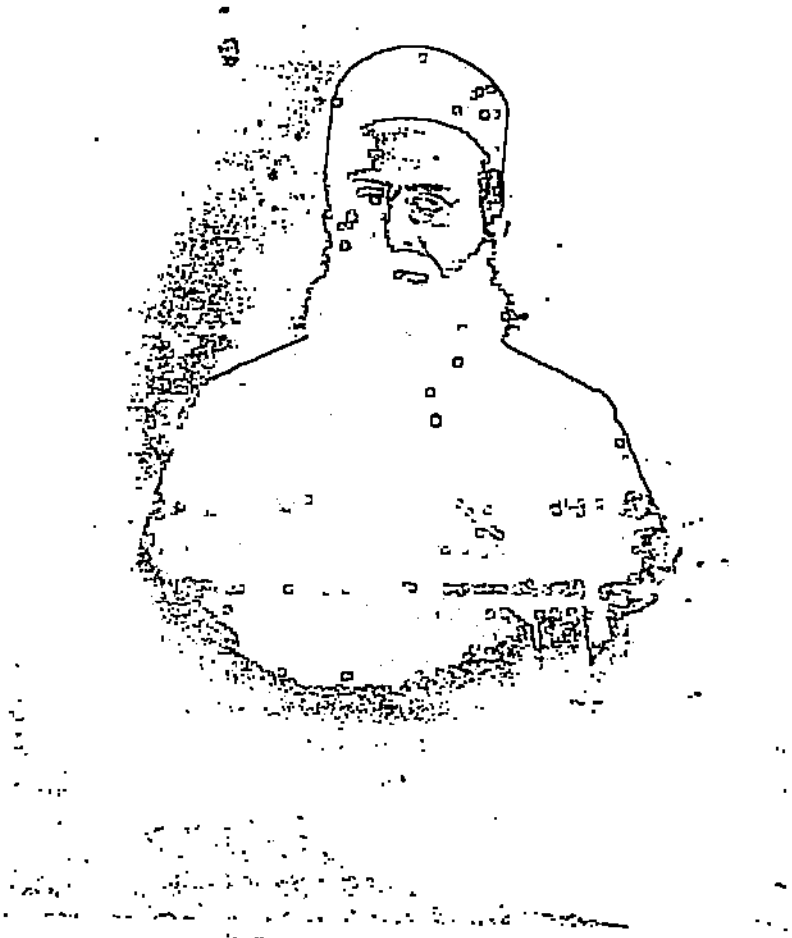

الخوري ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني

١٨٧٠ – ١٩٤٩

وهو في زهرة عمره وعنفوان شبابه

وكان للبطريرك الحويك (١٨٩٩ – ١٩٣١) نظرٌ في تقدير رجال العلم والفضيلة وهو ممن عرفوه وخبروه في جهاده الطويل : فأولاه ثقته وعطفه وتقديره. ورغب اليه سنة ١٩٢٧ ان ينسّق وينظّم مكتبة الطائفة في بكركي . فقام بعمله خير قيام . وذلك ما سهّل على العلماء والباحثين مهمة التفتيش والاهتداء بما وضعه من الفهارس .

وكان رحمه الله قد وضع مؤلفاً ضخماً في تاريخ حياة هذا البطريرك العظيم دعاه (العناية الصمدانية) اهدى نسخة منه الى الكاتب الشاعر اللبناني المرحوم رشيد بك نخلة (١٨٧٣ – ١٩٣٩) فردّ عليه شاعرنا بكتاب تاريخه ٢٥ ايار سنة ١٩٣٦ نُثبتُ نصه في ما يلي :

حضرة الصديق الأبرّ العالم العامل الجزيل الاحترام :

هذا كتابك في ترجمة الحويّك العظيم بين يديّ ، فجزاك الله خيراً عن اللبنانيين عامةً والموارنة خاصةً : ولقد كان من دلائل « العناية » هذه المرة ايضاً ان ينبري قلمك يترجم للكوكب الهاوي ، متنقلاً في فلك حياتـــه . من محطة عالية ، الى محطة عالية ، متدبراً كل مصير ، متميّزاً كل نقلة . متخيّراً كل إضاءة ، وهكذا تمّ لشيخ الجبل اللبناني على يديك ان يكون سعيد النجم في تاريخ حياته . كما كان سعيده في حياته ، فطوبى لقلمك في الاقلام ، ووفائك في الذمم : يوم تتلاقى وجوه الأحبّة ، وتجتمع الدنياوات في قرار الله ! !

أمّا نحن وقد رفع لنا الحويّك هذا الوطن في الارض ، واختطّ قوميّته ، وألفّ عليه الضمائر ، وعقد الخناصر ، فأيّ قسط وفينا لباني الوطن ، وأيّ حقٍّ أديّنا له ، اللهم إلاّ اذا كان هوى القلوب وحسّها ، وخطرات الذكر فيها تحسب شيئاً في باب الاعتراف بالفضل ، والنهوض لواجبه ، وهي يمين اقسمنا ، ويدي على كتابك من فوق الشطر السياسي فيه . إنّ في عنق هذه الأمّة يداً للحويّك لا توفى ، فنحن منه في تاريخ الوطن حيث جمع الشتات ، وخرب الحدّ ، ونسج الراية ، وفي تاريخ الطائفة حيث دق البشائر بأحلام مارونية عريقة تراها عيوننا على « الجبل اللبناني » ، بعد ان رأتها قلوب آبائنا على « العاصي » السوري .

وقد جرت لنا النعمتان كلتاهما ، على يد الحويك ، بل على حساب كدّه فيما بين يدي الله وأيدي رجال الممالك ، وتخضبّ بياض تلك الشيخوخة

المباركة بعرق الجبين : ودم النوتين في طلب النعمتين : فماذا تكافئ الأمة ذلك الفرد وتكافئ الطائفة ذلك البطريرك ؟ إلاّ اذا عدنا الى محبّة الحويك نفسه . وقد كان يصنع الصنيع وينساه ويولي المنّة ويدير وجهه : وأخذنا من محبّته لمكافأته .

فكتابك — لو لم يكن بين دفّته إلاّ تفصيل مصاير الأيام بالحويك في طلب تينك النعمتين — وإلاّ الشدّ والجذب بأعنّات شيخوخته في الطلب . وكدحه العجيب . وفي علّته في بوادي الحوادث وخوانيها لكفى ! !

فكيف اذن والكتاب فيه كرّة متصلة من يوم ميلاد أبينا العظيم الى يوم غرغر بالقداسة على فراش الموت . أضف براعة النسق في السرد ، واللباقة في استدعاء الخواطر . والضبط في التدوين : وبياناً سائغاً ونفساً صافياً .

أمّا انا الذي كان بيني وبين الحويك ما بين الابن وابيه ؛ وقطرة الماء والينبوع . فقد حرّكت شجوني وذكرياتي ودموع عيني ؛ ولعلّ الدموع مطافئ الحزن الكبير ؛ وآخر ما تستطيعه النفس البشرية من القدرة ، حيث تقصر اليد ؛ ويتلئ الصدر . ويكفّ اللسان عما وراءه : والله يحفظك طويلاً .

(رشيد نخلة)

ولمّا ارتقى السيد انطون عريضه (١٩٣٢ — ١٩٥٥) السدّة البطريركية ، وكان صاحب الترجمة قد رافقه في سائر ادوار حياته ؛ عهد اليه بمتابعة اعماله الجليلة الفائدة ؛ فعيّنه مستشاراً للديوان البطريركي وفي لجنة الطقوس لفحص الكتب الطقسية واصلاحها .

ان العمل النافع الشاق الذي قام به اخرّ بصحته ؛ فوهنت قواه ؛ وضعف بصره ؛ حتى اضطر في اواخر ايامه الى الاستعانة بالعدسة المكبّرة لتدوين كتاباته وابحاثه ، وظلّ مثابراً على التأليف والنشر والعبادة حتى صعدت نفسه الطاهرة الى باريها في دير الكريم بجونيه ؛ في العشرين من آذار سنة ١٩٤٩ فذهب مأسوفاً على علمه وفضله وجهاده .

وبموته انطوت صفحة مشرقة من التاريخ اللبناني العريق واصبحت آيات خالدات من سجل حياة حافلة بجلائل الاعمال .